يقظة الضمير

لبوريس فيليبوف

بقلم الأستاذ محمد لطفي جمعة

(اشتهر هذا الكاتب الذي نشأ في مدينة كييف ، عاصمة مقاطعة بادولي بدرس أعماق النفس البشرية، والاحاطة بالعوامل النفسية التي تنتج عن تغير أحوال الفرد بفعل القضاء والقدر وهو يعتقد أن الانسان أداة عاجزة و « عجينة لينة » في يد الفلك المدار فهو ليس ملك نفسه ، وليست إرادته بنافعة ولا بشافعة إذا تحكمت إرادة عليا . وقد وضع قصصاً طريفة تؤيد نظره ، ونشر بعضها في مجلات پراڤدا ، و « ذرفي دانيا » وفي مجموعة صغيرة دلت على علو كعبه في فن القصة ، ولكن المنية عاجلته في منتصف العقد الثالث في عام ١٩٢٢ وهذه القصة من خير ما كتب)

كان صديق بوريا مقاولاً وفناناً وقد درس صنعة العمارة على أبيه ، فقد كان معماراً شهيراً شاد بعض قصور النبلاء وشارك في رفع قوائم كنيسة سانت أندريه في ساراتوف على نهر الفولجا . وكان له مال وفير ورث بعضه عن أبيه وحاز بعضه بجده وكده . فنشأ في العز والترف ، وعاش عيشة راضية سعيدة . وقضى شبابه في بطرسبرج عاصمة القياصرة ، وكانت أجمل المدن في نظره ، فكان شديد الإعجاب بها ، يصفها بأنها ثمرة خير قران بين المعدن والمرمر والماء ، ولم يوفق البناءون في أنحاء العالم وفي كل العصور إلى ما وفقوا إليه في تشييد قصورها ومد جسورها وتزيين طرقها ولاسيما برسبكتيف نيفسكي . فكان بوريا يعيش سعيداً بين عمله وبين إعجابه بمسقط رأسه ومدينة أحلامه ، غير مكترث بما كان يقع في قصورها وسجونها وحصونها من المظالم ؛ يرفه عن نفسه في كل مساء باللهو في الأندية والملاعب والحانات ويختم لياليه بالمخاصرة والمعاقرة ـ وأحياناً بالمقامرة على المائدة الخضراء فيربح ما يربح ليعوض نفقات سهرته ، أو يخسر مالا يؤثر في ثروته . ولم يكن متزوجاً لأنه ما زال في عنفوان الشباب ، ولم يلق في الأماكن التي كان يغشاها تلك التي تتغلب على عوامل العزوبة في نفسه ، بل كان يكتفي باللواتي يقضين لياليه في لقاء صاحب ، تسبقه نشوة الخمر وتعقبه لذة الذكرى . وكان يذكر تلك الأيام والليالي جيداً حتى التافه من حوادثها . واستمر على تلك الحال بين العمل واللهو حتى التقى بالفتاة «جوتى» وكانت امرأة مدرس صغير في مدرسة ابتدائية ، وكان الزوج فقيراً يكفيه مرتبه كمعظم أبناء صنعته الذين تستغلهم الحكومة ليخرجوا رجال المستقبل ، وهم يموتون جوعا ، ويلاقون الويلات من شظف العيش . ولكن جوتى .. ما أحلى هذا الاسم في فمه فقد كان يتلمظ إذ ينطق به كأنه يحسو خمراً أو يستوعب قطعة من الحلوى المحشوة بالجوز واللوز عند ماروى لي قصتها وقصته بنفسه قبل موته بأيام قليلة قال : لم تكن محبوبتي جوتى جميلة وصغيرة فحسب ، بل كانت

كانت قدرة نادرة على تنظيم الحياة وتدبير الدار ، حتى تمكنت من مطاردة الفقر ومحاربته بالفطنة . فكانت تعد الغداء والعشاء ، ولكن جسمها كان دائماً نظيفاً معطراً . وتبدو أناملها التي تمارس الطهي مرتين في النهار رخصة دقيقة لم يعلق بها أثر من آثار النار أو الدسم ؛ وكان شعرها أسود لامعاً ، أما عيناها فنبعان من منابع الجمال . كيف أصفهما وهما بلون القطيفة الخضراء وحولها إطار بلون الشهد الذهبي ؟ أما ثيابها فقد كانت فتنة الفنان كأن مصوراً يفكر ثم يبتكر ، ثم يخرج فكرته ؛ فهي ثياب رخيصة ولكنها متقنة بل إلى ما فوق الاتقان . وهي التي علمتني أن الثوب ليس بثمن قماشه ولا بلون رسومه ولكن بدقة صنعه وتطريزه . كانت على فقرها محسودة من ربات الحجال من طبقة الأغنياء ، فنجحت تلك الفاتنة في أن تعيش بالخيال وجعلت من حياتها وجهها حلماً رائعاً . فلما رأيتها أثناء زيارة فنية في بيتها الصغير في شارع بوشكين في الخط الرابع في الدور الأعلى من العمارة رقم ١١٧ ، نسيت نفسي ونسيت وجه الدفرنيك (البواب) الدميم الذي لم أر أقبح منه في حياتي.. لقد نسيت نفسي حقاً وتساءلت أفي الأرض أنا أم في السماء ؟ وأحسست أني تغيرت في طرفة عين ، وصرت رجلاً آخر ، لا أحب سواها ولا أفكر إلا فيها ، ووهمت أنها لم تخلق إلا لتسعدني ونسيت أنها متزوجة ، وأن لها رجلاً آخر يعاشرها ويسعى على رزقها ورزقه . وغاب عني شبحه وفكرته وصار في ذهني الملتهب كأنه شخص خيالي لا وجود له في الحقيقة !! هل هذا هو ما يسمونه الحب للوهلة الأولى ، أو دقة الصاعقة ؟ لا أدري . والعجب في أمرنا أنها هي الأخرى أحبتني منذ تبادلنا النظرة الأولى ؛ وكان زوجها غائباً بالطبع ، وفي ظني أنه لو كان حاضراً لما غير حضوره موقفنا ! نعم كنت أحبها على الرغم منه ومنها ومن العالم أجمع . لم يكن قدها ولا جمال وجهها وعينيها ولا رخاصة أناملها ويديها ولا إبداع سماوتها هي التي فتنتني وحدها ، بل صوتها أيضاً ... صوتها ... كان هذا الصوت مزيجاً من الموسيقى وتغريد البلابل وهزات النسيم وسحر النغم الغامض وحنان الأم ، فاجتذبني قبل أن أفيق من غشيتي لدى رؤيتها . لقد تمثلت لي فيها الأنوثة الكاملة وأردت في لحظة جنونية أن أرزق منها بغلام . لقد صرخت الطبيعة في أذني ، وتحرك كل ساكن في كياني ، وفي لحظة أخرى عدت إلى نفسي فاحتقرت نفسي لانغماسي في الشهوات البخسة ، ورأيت ضرورة التغيير قبل أن أنبس بكلمة ، لأصبح رجلاً جديداً جديراً بحبها ، ولا بد من أن أطلق ماضي حياتي الملوثة بالدنايا قبل أن أفوز بيدها . هل تتخيل أن هذه المعجزة تتم في دقيقة واحدة على يد امرأة صغيرة ؟ ولكن المعجزة تمت ، فإن جوتي بادلتني حبي ؛ ولم يكن الفقر وحده سبب مطاوعتها إياي وتلبيتها نداء قلبي — لأنها كانت مستورة — ولم يكن نداء الجنس بالدافع الوحيد لها — لأن زوجها كان شابا — وقد قالت لي إنها لا تشعر بالخيانة الزوجية ، لأنها أحبت بإخلاص ، وإن الذنوب لا يشعر بها إلا المرغم على اقترافها . أما الحب الطاهر ولو كان مشوباً بالتسليم فلا يشعرها بالخطيئة ، فقلت لها : ياجوتي الصغيرة ، يا جوتي الحبيبة ، يا حلم الملائكة ورمز هيلانة الهاربة في سبيل باريس الفارس الجميل ، كيف تقولين ذلك ؟ إنه ذنب ضد عقيدتنا ... فنظرت إلي نظرة قصيرة ثم أغضت ... هل هو عتاب أم تكذيب ، أم تغليب إرادة الحب على إيمان القلب ؟ لست أدري ! اللهم اغفر ذنب حبها إياي فقد أحبتني

وأنقذتني . عجباً ! هل يمحو ذنب واحد ذنوباً جمة ؟ هذا هو الذى حدث . فإنى بعد حبها أصبحت بريئاً كالطفل . لقد أحبتنى لأننى كنت مرحاً وكنت غنياً فمكنتها من التمتع بما كانت محرومة منه من ملذات الحياة . صحبتها إلى المسارح الراقية وأسمعتها شليابين يغنى، وكاترينا دمنسكى تمثل، وأريتها ايزيدورا دنكان ترقص ، وسقيتها كؤوس الپيرمنت والڤودكا الغالية والبندكتين اللذيذ بعد العشاء فى مطعم بورتزيف ، ولم تكن تحلم بأن قدميها تطآن أرضه ؛ ورأت انعكاس أضواء المدينة على نهر النيڤا ، وتلألؤ أنوار قصر الشتاء على الجليد . وخلوت بها فى بيوت جميلة ، فكانت تقول لى : « إن قلبى يحدثنى يا بوريا العزيز بأن هنائى بك قصير الأجل ، ولكن لاعليك فقد حييت واستمتعت » ولا أستطيع أن أذكر لك كل ما رأيته وسمعته منها فلم أحتفظ بصورة من صورها التى صنعتها بنفسى فى الحدائق وفى ظل الأشجار وعلى موائد الطعام ولم أستبق رسالة من رسائلها ، فقد سلمتها إليها يداً بيد ، كالعرف السائد فى زمننا ، فإن العاشق لا يحفظ رسائل معشوقته المتزوجة ...

ولكن كل ذلك انتهى فجأة وأنا المذنب الملوم حقاً فقد بدأت بالقطيعة ولا أدرى ما السبب ، سوى رذيلة الملل من الشىء الواحد ، وبطر الرجل حيال المرأة الخاضعة ، وغريزة الزهد فيما يمتلك . فإن النفس تنتزع من ظلام الجحود أسباباً للفرقة . لقد تألمت لفراقها وشعرت بطعن الخناجر عند ما قالت لى لدى لقائنا الأخير : « ألم أتنبأ بأن سعادتنا قصيرة الأجل؟ إنك مثل كل الرجال ، وإن لم أكن عرفت سواك ، فأنت تنبذني بعد أن فرغت من غايتك . وأصبحت لا تقيم لى وزناً ، ونسيت كل عهدك . لقد سلكت السبيل التى يسلكها أمثالك ، فأنا لا ألومك ، ولكننى أحببتك وصدقتك ولا أندم على حبك ، ولا أستطيع أن أستعطفك أو أحرك شفقتك فليس فى وسعك أن تحبنى بعد أن زهدت فىّ ؛ وليس فى وسع أعظم الرجال أن يقدم الكرامة على العاطفة فان ملالك عند وصلك إذا انتهى الحب يكون أقتل لى من عذابى بعد هجرك . لو كنت امرأة أخرى .. لو كنت عذبتك وأذقتك لوعة الدلال والصد ، وبعتك صفاء قلبى غالياً ، لبقيت طول حياتك على حبى ؛ ولكن طبيعتى لا تتغير ، وقد جدت لك بنفسى منذ أحببتك فكانت عاقبتى مرارة البعد . لقد أفسدت حياتى يا بوريا ، فلن أصلح لأكون زوجة ، بل لن أصلح للفساد بعدك ! فإما راهبة وإما منتحرة ، فأيهما يحلو لك ؟ أفتنى فى هجرى كما أفتيتنى فى حبى ، قل بالله عليك ولا تضن علىّ بنصحك » فكانت كلماتها كوخز السنان فى قلبى ، وكانت الدموع لا تكفى لتمحو ألمى ، كما كان الرجوع إلى سابق عهدنا مستحيلاً بعد أن امحى العقد الذى كان يربطنا ، وانتثرت كلماته الممزقة فوق رمال القطيعة المجدبة كالصحراء ، فرجعت إلى صديقى كرلنكو بيليانوف ـ قاتله الله ! ـ فقد كان فاسقاً مستهتراً ، وكنت هجرته منذ عرفت حبيبتى المخلصة جوتى . وقلت له اسمع : إنها تنذرنى بالندم، زاعمة أننى لن أجد سواها فيمن يماثلها من النساء . فقال لى : كلهن يقلن هذا القول لاستبقاء الرجل المحبوب ؛ أما إذا فرغت قلوبهن من حبه ، فلن يعرنه أقل لفتة ، ولا يشفقن عليه ولو تمرغ فى تراب أقدامهن ولو تمزقت أحشاؤه أمام أعينهن . الأولى لك يا صديقى أن تعف عن الطعام ونفسك تشتهيه . أنظر هنا يا بوريا . أنظر هنا ، الأولى لك أن تبدأ بالانصراف قبل أن تفاجئك هى بالهجر ـ

إن أخف حرب بين الجنسين يا أخي ، ومن المهارة في الحرب أن تنسحب من الميدان قبل أن ينال منك خصمك أو يجهز عليك ، والإجهاز هنا أن ينتهي حبها بك وأنت متعلق بها فالويل لك ثم الويل لك. واعلم أننا جميعاً نفعل مثلك : نغازل النساء المتزوجات ثم نودعهن وداعاً لا لقاء بعده . فافعل كل ما يفعله أبناء جيلك ولا تحسب أنك تذنب في حقها .. وإذا كنت تعلم أنها فقيرة ، وأنها متشبثة بك لغناك ووفرة مالك فلا بأس من أن تعوضها بنفحة أو بسطة كف تستعين بها على نسيانك وتجديد حياتها في ظل زوجها الأنوك !

وعندما سمعت منه هذه الكلمة قلت له : اخرس أيها النذل ؛ فإنها ليست من هذه الطبقة وليست على هذا الطراز . إن هذه الطفلة الوادعة تنقلب دُباً لتنشب أظفارها في وجهي إذا قدمت لها المال ... ثم أنت تغتاب رجلا جنيتُ أنا عليه ! فغضب بيليانوف . وقال لي: أنا نذل..؟ أنت حمار ، لن تستريح حتى تنهق . فأعجبتني النكتة وضحكت وصالحته . هذا العذول الخبيث بيليانوف . اصطلحنا وسقيته قنينة من القودكا الرخيصة الثمن لأنني كنت أكره أن أراه يشرب النوع الذي كانت جوتي تشربه معي فأردت تسميمه لأجل الذكرى . وبعد أن تلذذ بيليانوف بالخمر ، وقبل أن يصاب بالصداع المحتم قال لي:

أنا أعلم يا بوريا أنك رجل شريف ، تنكره السرقة وتأبى المطل في السداد وتبغض خيانة الأمانة وترفض أن تهتضم حقوق الغير ، وهذه عادات كسبتها بممارسة أعمالك ، ولكن أن تستمر على حب امرأة أحبها غيرك ، هذا الذي لا تطيقه بطبعك . إنها كالنواة التي يلفظها من أكل الفاكهة ، أترضى أن تعيش على النوى ؟ إنها متزوجة كما تقول ، فلها رجل آخر لا تقدر على رده ...

فأحدث الخبيث بيليانوف في ذهني صورة قبيحة قاتله الله ! ليتني ما أسكرته فقد صار بعد القودكا أسلط لساناً وأقبح لفظاً وأجرأ على الكلام القارس . يا لك من عذول لئيم يا بيليانوف .. لم يكن اللئيم خالياً من الأغراض . فقد كنت هجرته فيمن هجرت من الأصدقاء بعد حبي إياها ، وقد كفتني الاجتماع به وبرفقائه في الحانات والملاهي والمغاني الصاخبة فقنعت بها دون كل الناس . فكان يروق له أن يستردني لأعود سيرتي الأولى . أليس هذا عجيباً ؟ لقد كان يغار منها وهو لا يعلم ذلك ، أو يعلمه ويخفيه عني ليظهر أمامي بمظهر الناصح المخلص

فقلت له قبل أن يصيبه الصداع :

— ولماذا لا تنصح لي أن أتزوج ؟ فقال : آه . الزواج ! هذا شيء آخر . دعنا نخلص أولاً من الخليلة ، حتى نبحث عن الحليلة

قاتله الله وجميع القديسين ! لقد كان جوابه حاضراً وبديهته سريعة فأقنعني قبل أن يصيبه صداع القودكا المحتم . وصحت عزيمتي على هجرها فخلت بين نفسي وبينها وأنا على أشد الألم ، فتغلبت في النهاية بعد أن ذقت الأمرين . فقد كانت صورتها لا تفارقني في الليل والنهار ، وكنت أحلم بلقائها ووصلها وأسمع أنينها كأنها فجيعتي ، وأتذوق حلاوة لمسها وهي بعيدة عني حتى لقد هممت المرة بعد المرة أن أتوب إليها ، وأعود راكعاً بين يديها

وتخيلت فرحها إذ ذاك فكدت أجن من الوجد ولكنني قاومت وقاومت حتى فزت بالنسيان ، ولست أدري بالدقة كيف عشت بعد هجرها ؛ وتلهيت بالانكباب على عملي ، وقطعت علاقتي بيليانوف وأشباهه وطلقت حياة الرقص والخمر ونفضت عن كاهلي حياة الفجور كما ينفض الشخص ثيابه في يوم مطير

وتفرغت للبناء وجمع المال فربحت فوق ثروتي أرباحاً طائلة ، وصرت المقاول المعروف بالمهارة في

عملى والانانة فى شخصى والاستقامة فى خلق وبلغت ذروة الانتصار المادى وتكدست أموالى فى المصارف ووثقت بى الشركات ورجال الأعمال وتمكنت من التصرف فى ملايين الروبلات واتصلت شهرتى بفنلندا فبنيت للقيصر قصراً على شاطئ البحر وأعددت له مرسى ليخته الذى كان يعتمد عليه فى فراره . أتعرف تسارسكوى سيلو ؟ نعم ! أنا الذى أشرفت على بنائه وسافرت إلى الغرب . وزرت إيطاليا وفرنسا ودرست كل طراز للبناء القديم والحديث . وأخيراً حننتُ إلى البيت والمثوى والركن الركين والرجولة المطمئنة الآمنة بالمال واليسر والرخاء المضمون . فتزوجت من فتاة جميلة ورزقت أطفالاً وبينهن بنت أسميتها جوتى (لأجل الذكرى التى كانت تتجدد) ثم جاءت الحرب العظمى واضطربت الأحوال وارتبكت الشؤون ونفخ فجأة فى صور الثورة . وصار كل شئ إلى الفناء المقدور ، إلى العدم . وحل الفشل محل النجاح وماتت الزوجة وتشتت شمل الأطفال ، فلا أدرى أين هم . وقابلنى بيليانوف وكان لا يزال يسكر ويلهو ويعتمد على الغير فى نفقاته ، فلما رآنى وسمع قصتى قال : لاتبتئس فان جان جاك روسو كان له خمسة أطفال ألقى بهم جميعاً فى ملجأ اللقطاء ! لست أعلم منه ولا أعقل ولا أغنى . لقد كان فيلسوفاً كبيراً وألف أحسن الكتب ، وأنت ، ما أنت إلا مقاول ومعمار . وإن العالم كله أصغى إلى تعاليمه وهو لا يعلم إن كان أولاده أحياء أم ذهبوا إلى العالم الآخر ، إن كان هناك عالم آخر ؛ المسألة ترجع إلى اعتقاد روسو . فسُرِّى عنى وأنا أعلم خبثه وقبلت كلامه على علاته بحكم اضطرارى لقبوله . وعدت إلى شرب الخمر ولعب القمار من جديد ثم مارست أعمالاً فأحرقت الأخضر واليابس وقضت على البقية الباقية من مالى . وغادرنى التوفيق وابتعد عنى أصحابى وعادانى أشدهم لؤماً ، ماعدا بيليانوف ، لأنه لم يكن يعطينى شيئاً ولا يضيره أن يأخذ من غيرى . وألقى بى المجتمع الذى كنت يوماً من سادته ، ولكن الحالة الجديدة لم تجعل سيداً ولا عبداً . وكان يعزينى أن القيصر وولى عهده والقيصرة وبناتها لم يكونوا أسعد منى حظاً ، ولكن هذا القول كان وهماً ؛ ولكننى كنت أتوهم ماهو أعظم منه وهو أننى سأعود يوماً ما إلى الثراء بعد الحاجة ، واليسر بعد العسر ، إذا نفضت عن كتفى غبار اليأس القاتل . وصورة الثروة التى أستردها لما تفارقنى ، وكانت تحارب أمام عينى شبح الفقر الذى يتهددنى ، فكنت أحسب أن لى قريباً مجهولاً سوف يهلك فى أمريكا وتوافينى ثروته على عجل ، أو أن يكون لى كنز دفين فى أحد البيوت التى بنيتها . وتملكت هذه الفكرة نفسى فعاد إلىّ بصيص من الرجاء وظفرت بصفقة رابحة عدتها فاتحة الخير وبداية الفرج بعد الضيق . وكان الجنود العائدون من الميدان يملأون الحانات ، ولا سيما فى حى بطرس وبولس بجوار الحصن الشهير ، ففشيت ليلة إحدى هذه الحانات التى كانت مكتظة بالثائرين من عسكر الدولة التى بدأت تتلون بلون الثورة ، وكانت ضجة الجنود وهم يتجرعون الفودكا تعلو وتتضخم وتهز أركان المكان كما انعقدت فى سقفه الأسود سحب من دخان طباقهم ، وأخذوا ينظرون إلىّ شزراً لأننى لم أكن أختال فى ثياب كثيابهم ، فطلبت من الساقى قنينة من الفودكا لأحرف أنظارهم عنى فتغير نظرهم إلىّ من الحقد إلى السخرية ، كأن الخمر كان وقفاً عليهم .. ولكنهم فى الحق كانوا يتساءلون فيما بينهم عن علة قعودى ، لماذا لا أخوض غمار الحرب التى خاضوها ، وأبقى فى العاصمة منعماً بالحرية

والسلامة ؟ ولو علموا الحرب التي أعانيها لأشفقوا عليّ فانها كانت أحمى ناراً وأحرق أواراً من حرب القنابل ، فان الموت كان خيراً مما أنا فيه . وطالما حسدت بطل تولستوى « الميت الحى » ولكن أنى لى بنعمة الموت المنقذ ؟ وبينا أنا مستغرق فى وحدتى والألم يحز فى نفسي ، والندم على دخولى هذا المكان يكاد يمزق أحشائى ، وإذا بامرأة ظهرت تختال وتتبختر وتضيء وتتلألأ كالكوكب الدرى فى ظلام تلك الحفرة المدلهم ؛ كانت تلبس ثوباً من الحرير الأحمر يماثل ثياب ضباط الفرسان وفى يدها عصا صغيرة من العاج . فلما دخلت ساد السكون واتجهت الأنظار إليها ثم أخذت تنظر وتنتقي ما طاب لها من الشبان والكهول وتوزع الضحك والكلمات العذبة والنظرات الفاتنة ذات اليمين وذات اليسار . وفجأة انطلقت الألسن بعبارات الإعجاب وتبدل العبوس بالابتسام والضحك ، وأخذوا يستعطفونها ويقدمون لها الأقداح ؛ وقد ينهض أحد هؤلاء الجنود الظمآنين إلى الحب فيلمس يدها ثم يقبض عليها ويضع على أناملها قبلة حارة . وكانت المرأة تقابل ذلك كله ببشر وسرور ومرح ، وترحب بألفاظ الحب بنظرة دلال ، وتبادل بعض الضباط نكات لاذعة ولكنها فى حدود الأدب ، فانقلبت الحانة الجهنمية روضة من رياض النعيم . وعلى غير انتظار رأتنى . والتقت عيناناً ، فأعرضت عنى أولاً .. وتجهم وجهها وتغيرت حالتها . وفى شبه حلم مخيف عرفتها هى .. جوتى .. لقد أخبرونى أنها ماتت في جزيرة القريم منذ ثلاثة أعوام بمرض الصدر ... كذبوا وهاهى ذى على قيد الحياة ، جميلة رائعة ، ولكنها تبدلت . صدقوا ... إن جوتى التى عرفتها وأحببتها وقاطمتها ونسيتها قد ماتت ، أما هذه فامرأة أخرى وا أسفاه ... إنى لم أستطع أن أنتزع صورتها الأولى من ظلام الماضى الحالك .. من مخزن التصاوير الفابع فى ذهنى كأنه صراف بخيل ... لا يقدم الأشكال والرسوم إلا بحساب أى حساب

لقد تجاهلتنى وابتعدت عنى وثارت على الترحيب بأضيافها حتى لم يحرم أحد من الحظوة منها ببسمة أو نظرة عطف مصطنع أو كلمة عذبة أو وعد بلقاء قريب . وكانت « خطة السير » قد ساقتها مصادفة أو بقصد غامض نحو المنضدة التى طرحت عليها أعباء همى ووهمى ومددت لديها بساط خسارتى وندمى ، فلما دنت منى حدقت فىّ ، ودهشت ، ثم تراجعت وقالت لى وهي تضحك ضحكة الألم والسخرية والندم والخجل ، ضحكة لم تكن تعرفها جوتى الأولى ، وأتقنتها هذه الثانية وقالت لى :

— أأنت هنا ؟ فى الحانة ؟ لقد التقينا . إن العالم صغير ، ولا بد للأحياء أن يجتمعوا مهما فرقت الأيام بينهم . أنظر إلى ماصنعتَ يحق لك أن تفتخر . أنا مخلوقتك ، بل قل مخلوقة حبك ، إن شئت . فأحنيت رأسى ألماً وحسرة فقالت لى :

— إرفع رأسك يا بوريا ولا تخجل . إن الصانع لا يخجل من صنعته ، وأنا صنعة يديك . لم يكن ينقصنى إلا أن أراك ، وها أنا ذى قد رأيتك . ثم مدت لى يدها — تلك اليد التى طالما قبلتها وبللتها بدموعى وبقينا هكذا برهة لا أدرى هل طالت أم قصرت لأن نفسى كانت فريسة الانفعال والعواطف ورأسى كأحد مصانع الأسلحة والذخائر ؛ ثم شعرت أنها تسترد كفها من يدى ، كما لو كانت حلية تخشى عليها من سارق يقلبها بين كفيه ليسلبها ، وحولت عينيها عن عينى وقالت : الوداع يا ... بوريا

فى صباح تلك الليلة عثروا فى نهر النيفا على جثتين الأولى لرجل فى الأربعين من عمره والثانية لامرأة فى مقتبل الشباب . بوريا وجوتى ! !

محمد لطفى جمعة